فى طريق المنفى

للأديب حسين شوقى

هى ذكرى ، وثلة من ذكريات الصبى حدثت فى بداية الحرب العالمية.

عند مغادرتنا محطة القاهرة فى طريق المنفى ، جاء اقاربنا يودعوننا وكانوا يعتقدون ان الحرب سوف تنتهى قريبا لأن الفيالق الألمانية المظفرة كانت وقتئذ على أبواب باريس ، فكان من المفروض ان فرنسا سوف تضطر الى التسليم ، وعلى هذا نرجع من المنفى بعد أشهر قليلة ، ولكن اخطأ مع الأسف هذا الحساب لأننا بقينا فى الخارج خمس سنوات ، كما ان بعض هؤلاء الأقارب الاعزاء أدركتهم المنية قبل عودتنا الى الوطن .. قصدنا بعد ذلك السويس حيث ركبنا سفينة اسبانية قادمة من جزر الفلبين ، ونقصد برشلونة (اسبانيا) ، ولم تكن السفينة متينة ولا كبيرة ، ولكن لم يكن لنا وقتئذ الخيار فى ركوب سفينة أخرى ، وقديما قالوا ان المضطر يركب الصعب من الامور وهو عالم بركوبه ، وفوق هذا لم تشفق أمواج المحيطات الهندية على هذه السفينة فى طريقها الى السويس ، فخلفتها فى حالة سيئة ..

انقضت الأيام الاولى من الرحلة فى هدوء تام ، وقد تعرفت اسرتى بمعظم المسافرين واغلبهم اسر ألمانية وتمساوية اعتقل رجالها فى مصر .. وكم كان محزناً حال هذه الاسر وهى مدفوعة الى مصير مبهم مجهول بلا مال ولا نصير ! ولولا أمل هؤلاء القوم فى النصر لما استطاعوا ان يصبروا على ما كانوا فيه من بؤس وشقاء ..

أما انا فقد تعرفت على الفور (قبل اقاربى) بالركاب الذين هم من سنى ، لأن الديموقراطية الحق هى التى تسود علاقات الاطفال وكنا - هؤلاء الاطفال وانا - بطبيعة الحال غير شاعرين بالمأساة الكبيرة التى تمثل على مسرح العالم ، بل بالعكس كانت فرصة لنا لنمثل معارك كالتى كانت ناشبة بيننا لألمان وخصومهم

ولكننا كنا نجد بصعوبة من يرضى منا ان يقوم بدور العدو لأن هذه الوقائع كانت دائما تنتهى بفوز ألمانيا ، وبضرب الجنود المفروض أنهم أعداء ضربا مبرحا .. وكان معنا على ظهر السفينة قسيس ألمانى منفى من مصر ، وكان يلومنا على عملنا ويدعونا الى المحبة والوئام ، ولكن لعمرى هل كان الكبار وقتئذ ينصتون الى مثل هذا القول حتى ينصت اليه الصغار ؟

وكان على ظهر السفينة - غير هذه الاسر الالمانية - عشيقان اسبانيان قادمان من الفلبين ، وكانت حالهما أشبه بحالنا - معشر الاطفال - فى عدم الاكتراث بما يقع فى الدنيا من حوادث جسام ، اذ كانا يقضيان الأيام فى غزل متواصل . كان لهما على ظهر السفينة كرسيان طويلان (chaise longue) متلاصقان ، فكنت اذا مررت أمامهما قطعا الغزل ، فاذا انصرفت استأنفاه ، فأغضبنى هذا التصرف منهما . وأقسمت أن أفاجئهما متلبسين بالجريمة ، من اجل هذا وضعت كرسيى بالقرب منهما ثم اضطجعت عليه ، وغطيت وجهى بشال من الصوف متظاهراً بالنوم ، فلما استأنف العشيقان الغزل قفزت من مقعدى فجأة وضحكت ضحكة عالية لأننى كنت أرقبهما من ثقب صغير أحدثته بأسنانى فى الشال !

ثم كان هناك راكب اختل عقله من طول السفر ، اذ مضى عليه اربعون يوما وهو فى السفينة ، وكانوا يسمحون له بالنزهة على ظهر المركب فى حراسة بحار حتى لا يلقى بنفسه فى اليم ، ولكن جنون هذا المجنون كان من حسن حظنا هادئا .. وكان بعضهم يزعم ان مثل هذا الجنون وقتى يذهب لدى نزول صاحبه على الارض. ثم كانت معنا فى السفينة شحنة من الثيران مرسلة الى اسبانيا ليمثل بها - المسكينة - (فى الكوريداس)(١) ، ولكن قبل وصولنا الى برشلونة يوم ، هبت عاصفة شديدة لم أذكر انى شاهدت فى حياتى مثلها ، فكانت أمواجها الصاخبة تهاجمنا ، وكأنها فى بأسها قبائل الهون المتوحشة ، وكانت تصيح أثناء الهجوم صياحا شديدا ، فاذا كان غرضها اذ ذاك ان ترعبنا فانها أدركت حقا بغيتها ، اذ كانت حالنا جميعاً سيئة جداً كما ان اضلاع سفينتنا كانت تئن من جراء هذه الصدمات أنين الشيخ الهرم عند أزمة (لومباجو) حادة ... وقد أمر القبطان بالقاء الثيران فى البحر حتى يخف عبء المركب ، ولا زلت أذكر ذلك المنظر البشع برغم عهده البعيد ! كان يلقى بالثيران الواحد تلو الآخر وهى تصرخ كأنها تشهد السماء على جبروت الانسان !

وقد اخرتنا هذه الزوبعة - التى مازالت الى اليوم أعجب من نجاتنا منها - وما كاملا عن ميعاد الوصول . .

ولما بلغنا فى النهاية برشلونة ، وترامت لنا المدينة عن بعد ، لم يكن فرحنا اذ ذاك يقل عن فرح (كرستوف كولومب) حين

(١) ميادين سباق الثيران .